ـ ٣ ـ

ذكرت ثلاث نواح من واقعي المعاصر : ويتوجب علي الآن أن أشرح هذه النواحي وأناقشها باختصار ، بحيث يتبدى كيف توصلت إلى مسار خاص في البحث والكتابة .

١ ـ التمييز بين المعرفة الخاصة والمعرفة السياسية

من السهل المجادلة بأن المعرفة عن شكسبير أو وردزورث ليست معرفة سياسية ، بينما المعرفة عن الصين المعاصرة أو عن الاتحاد السوفياتي هي كذلك . إن لقبي الشكلي والمهني المميز هو « إنساني النزعة » ، وهو لقب يشير إلى الانسانيات باعتبارها حقل اختصاصي ودراستي ، ولذا فانه من المستبعد وجود أي شيء سياسي يتعلق بما أقوم به في ذلك الحقل . طبعاً ، إن جميع هذه التسميات والتعابير تستخدم هنا بمعزل تام عن ظلال معانيها ، لكني أعتقد بأن الحقيقة العامة لما أشير اليه تحظى بقبول واسع النطاق . وثمة سبب وراء القول بأن الشخص الانساني النزعة الذي يكتب عن وردزورث ، أو المحرر الأدبي المختص بموضوع الشاعر كيتس ، ليس متورطاً في أي شيء سياسي ، وهذا السبب مفاده ان ما يفعله الواحد منهما يبدو انه لا ينطوي على أثر سياسي مباشر في الواقع بمعناه اليومي . فالباحث العلمي الذي يتخذ من الاقتصاد السوفياتي حقلاً لنشاطه يعمل في مجال مشحون لدرجة عالية ، حيث يكثر الاهتمام الحكومي بموضوعه ، وما يمكنه انتاجه على صعيد الدراسات أو المقترحات سوف يتلقفه صانعو السياسة والمسؤولون الحكوميون وعلماء الاقتصاد المؤسساتيون ، وخبراء المعلومات والمخابرات . والتمييز بين « أصحاب النزعة الانسانية » والأشخاص الذين ينطوي عملهم على مضاعفات في السياسة أو على دلالة سياسية هو تمييز يمكن توسيع نطاقه اكثر بالقول إن اللون الايديولوجي لصاحب النزعة الانسانية هو مسألة ذات أهمية عرضية بالنسبة للسياسة (بالرغم من إمكانية كونه على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لزملائه في الحقل الاختصاصي ، إذ قد يعترض هؤلاء على ستالينيته أو فاشيته أو على ليبراليته الهينة جداً) ، بينما نجد أيديولوجية الطرف الثاني وقد حبكت مباشرة في نسيج مادته ـ حقاً ، إن الاقتصاد والسياسة وعلم الاجتماع في الاكاديمية الحديثة هي علوم ايديولوجية ولذا يفترض جدلا كونها علوماً « سياسية » .

ومع ذلك فان العامل المحدد بالنسبة لمعظم المعرفة المنتجة في الغرب المعاصر (وانا أتحدث هنا بشكل رئيسي عن الولايات المتحدة الأميركية) هو أن تكون معرفة غير سياسية ، أي علمية وأكاديمية ومتجردة ومترفعة عن الاعتقادات المذهبية المتحيزة أو ضيقة التفكير . فالمرء ربما لا يسعه منازعة طموح من هذا النوع على الصعيد النظري ، غير ان الواقع على صعيد الممارسة العملية هو أشد تعقيداً واشكالية . ولم يسبق لامرئ حتى الآن ان استنبط طريقة لتجريد العالم الباحث عن ظروف الحياة ، وعن حقيقة انتمائه (الواعي أو غير الواعي) إلى طبقة اجتماعية ومجموعة من المعتقدات ومركز اجتماعي أو عن مجرد النشاط الذي يجعل منه عضواً في مجتمع ما . هذه الأمور ما زالت وثيقة الصلة بما يفعله المرء على الصعيد المهني ، بالرغم من كون أبحاثه وثمارها ـ وهذا أمر طبيعي بما فيه الكفاية ـ تحاول بلوغ مستوى من الحرية النسبية حيال الكوابح والقيود التي يفرضها عليه الواقع اليومي الفظ . لأنه يوجد هناك شيء مثل المعرفة